فضيلة الإحسان

الإسلام هو المنهج الحق الذى جعله الخالق جل وعلا لإصلاح الخلق وهو الدين الذى لبى فى الإنسانية كل هواتف الروح وأشواق البدن، وضرورات العيش. ومقتضيات الاجتماع، وأحاطهم بكل ما فيه أمنهم وسلامتهم فى حنايا النفس وشئون الحياة كلها.

لقد جاءَ الإسلام يهتف فى الناس بكل خلق جميل، ويندبهم إلى كل فضيلة مثلى، ويدعوهم إلى كل ما يعود إلى أصل الفطرة و إلى كل ما يدعمها ويعلى شأنها، وفى إطار هذا جاءَ الإسلام يدعو المؤمنين به إلى فضيلة الإحسان لا كأمر نظرى مجرد، وإنما كفضيلة لها منهجها العملى العام وخطوطها الحيوية البارزة فى الواقع العقائدى والتشريعى والعملى والسلوكى والأخلاقى والاجتماعى.

والإحسان أفعال من الحسن وهو كل منهج مرغوب فيه عقلا أو حساً أو هوى. والحسنة يعبر بها عن كل ما يسر من نعمة تنال الإنسان فى نفسه وبدنه وأحواله.

والإحسان فى الإسلام فضيلة من أجل الفضائل الإنسانية وخصلة من خصال أهل التقى والعرفان. وهو قسمان: الإحسان بمعنى التفضل والإنعام. فإذا فعل الإنسان الواجب عليه نحو ربه وبنى جنسه وزاد عليه كان ذا فضل عظيم على نفسه حيث أنه أنصفها وأحسن إليها بإخلاصه وقيامه بعمله.

القسم الثانى: الإحسان بمعنى الإتقان. وذلك بأن يقوم الإنسان بأداء ما فرض الله عليه بإتقان مع مراقبة الله وخشيته فى السر والعلانية بحيث لا يقتصر المؤمن المحسن على المفروض والواجب. . وإنما يرمى إلى ما فوق ذلك من كمالات وآفاق لا يرقى إليها ولا يحلق فيها إلا من تعامل بهذا المنهج واستقام عليه، ووضحت أمامه بعد المقارنة الموضوعية والأمينة الرؤيةَ الشاملة.

إن الدعوة الإسلامية إلى الإحسان، واهتمام آيات القرآن الكريم بالإحسان هى دفعة قوية للمسلمين لتأخذ بهم إلى الشرف فى أُفقه الأسنى، وإلى الكمال فى برجه العالى، لأنها دعوة ودفعة إلى الإحسان بمعناه المطلق أولا. ثم بمعناه العملى المتصل الذى يتناول ولاءَ الإنسان المسلم وتدينه واتباعه لأحسن ما أنزل الله من الكتب والشرائع. قال تعالى فى سورة النحل الآية التاسعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[1]. والإحسان كما يكون فى العبادات يكون أيضا فى الأُمور الدنيوية من زراعة وصناعة وتجارة فيكسبها المسلم بالإتقان حسناً ونضارة. فالتاجر والصانع والزارع إذا أتقن كل منهم عمله وما نيط به. فإنه لاشك بإتقانه هذا قد خدم نفسه وجلب لها الكثير، واكتسب رضا الناس من صغير وكبير، وخدم المسلمين حيث قدم إليهم ما ينفعهم ويريحهم ووفر عليهم نفيس وقتهم.

والإحسان يكون بإنفاق المال فى وجوه البر وصنوف الخير مما يعود على المعطى له بل وعلى الأُمة الإسلامية جمعاءَ بالسعادة والهناءَة. قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[2].

فكل ما صدق عليه مسمى البر والخير فلا نزاع فى أن الإنفاق فيه حسبما قرره الشرع من الإحسان الذى وعد الله ذويه بمزيد من الفضل والإنعام.. وقد كان الرسول محمد صلوات الله وسلامه عليه أجود بالخير من الريح المرسلة.

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢) البقرة: ١٧٧.

والإحسان يكون ببذل المروءة وكف الأذى وإبداء الصفح والعفو، ومقابلة الإساءة بالذى هو خير. قال تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾**﴾[1].

والإحسان يكون فى الكلمة الطيبة يلقيها المسلم لأخيه المسلم فتفرج من همه، وتكشف من غمه، وتنفس من كربه. واللفظ فى لغتنا العربية قالب الفكرة، ووعاءُ المعنى وبقدر ما يكون حرص الإنسان على حسن اللفظ وحلاوة الكلمة، وطلاوة الحديث بقدر ما تكون منزلته لدى الناس وإقبالهم عليه وألفتهم به. ولهذا كله دعا الإسلام المسلمين إلى إحسان القول واختيار اللفظ. وأوجب علينا ذلك حين يكون المقام مقام دعوة إلى الله وتبليغ رسالة الإسلام. فإن هذا أدعى إلى أن يفتح الله بالكلمة الطيبة واللفظ الحسن قلوباً غلفاً وأعينا عميا و آذانا صما.

قال تعالى فى سورة النحل: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾**﴾[2].

والدعوة هنا ـ كما يذكر علماءُ الأمة الإسلامية ـ تكون بالمقالة المحكمة الصحيحة وهى الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة.

وهكذا نرى أن الخلال التى جاء بها الإسلام ضمن المنهج الأخلاقى والسلوكى ليست من قبيل الأمور النظرية التى كثيراً ما ولع بها فى القديم والحديث المفكرون والفلاسفة ،وشغلوا بها الناس دون أن يكون لها واقع وإنما جاءَت هذه الخلال جزءًا حيويا من منهج متكامل عام وشامل تصب وحداته وروافده فى إيجاد المبادىء العليا وتأصيلها وأخذ الناس بها.

---

(١) فصلت: ٣٤ ، ٣٥.

(٢) النحل: ١٢٥.

والإحسان هو الذى يولد غرائز الفطرة، ويوثق الروابط الطبيعية بين الاقربين حتى تبلغ البيوت فى وحدة المصلحة درجة الكمال، وفى تفسير المنار : ومن لم يكن له بيت لا تكون له أُمة، وذلك أن عاطفة التراحم وداعية التعاون إنما تكونان على أشدهما وأكملهما فى الفطرة بين الوالدين والأولاد ثم بين سائر الأقربين فمن فسدت فطرته لا خير فيه لأهله. فأى خير يرجى منه للبعداء الأبعدين؟! ومن لا خير فيه للناس لا يصلح أن يكون جزءًا من بنية أُمة لأنه لم تنفع فيه اللُحمة النَسبية التى هى أقوى لحُمة طبيعية تصل بين الناس. فأى لحُمة بعدها تصله بغير الأصل فتجعله جزءًا منهم يَسُرُّه مايسرهم ويُؤْلمه ما يؤْلمهم، ويرى منفعتهم عين منفعته ونضرتهم عين نضرته وهو ما يجب على كل شخص لأُمته.

والباحث فى القرآن الكريم والسنة المطهرة يجد أن الإحسان يزامل المسلم ويغوص به ومعه حتى يصل به إلى قاع المجتمع ماراً به فى دوائر متوالية من القرابات والعلائق والصلات من الإحسان إلى الوالدين والإحسان إلى ذوى القربى، والإحسان إلى اليتامى والمساكين، والإحسان إلى الجيران، والإحسان إلى الناس. إن الإسلام يحرص الحرص كله على أن يكون المسلم مركز إشعاع فى مجتمعه وهذا كله من شأنه أن يزرع فى القلوب الألفة، وأن يبث فى الأفئدة الحب وأن ينتشر فى ربوع المجتمعات الإسلامية روح المشاركة الوجدانية بصورة عملية وواقعية، ويمضى الإسلام بالمجتمع فيربيه على فضيلة الإحسان فى حله وفى ترحاله وأسفاره وتنقلاته.

وإن أُمتنا الإسلامية تتطلع إلى مجدها الحضارى لتأخذ دورها الحيوى فى إنقاذ الإنسانية من وهدة الضياع والخسران. من هنا كان علينا أن نحافظ على القيم الإسلامية الهادفة، ونعمل بتعاليم الإسلام فى صدق وإخلاص، ولنعود إلى القرآن الكريم لنرتشف من رحيقه، وفى ذلك الشفاءُ.

* * *